حول مصنفات وآثار الإمام ابن جرير الطبري (10) الرد على ذي الأسفار





محمد تبركان

تاريخ الإضافة: 7/5/2025 ميلادي - 10/11/1446 هجري

الزيارات: 770

حَوْلَ مُصَنَّفاتِ وآثارِ الإمامِ ابنِ جَريرٍ الطَّبَرِيِّ (10)

الرَّدُّ على ذي الأَسْفار[1]

هو كتابٌ في علمِ الخِلاف[2]، ألَّفه الإمامُ الطَّبريُّ رَدًّا[3] على شيخِهِ الإمام داود بن عليّ بن خَلَف الأصبهانيّ الظّاهريّ (ت: 270هـ)[4]، بعدما دارَت بينهما مناقشةٌ، أفضَتْ إلى جدالٍ ومناظرة، ظَهَرَ فيها الطّبريُّ على داود بن عليّ، وبَزّه في أقوالِه وحُجَجِه؛ فآلَمَ ذلك أصحابَ داود، فما كان من أحدِ أتباع داودَ وطلبتِه إلّا أنْ استطالَ على أبي جعفرٍ فشتَمَه، وأساءَ له الكلامَ، وأغلَظَ له في القول؛ فقامَ الطّبريُّ من المجلس، وعملَ هذا الكتابَ، وأخرجَه على دُفُعاتٍ، حتّى أخرجَ منه قطعةً في مِئةِ ورقةٍ.

أمّا الإمامُ داودُ بن عليّ فقد قطَعَ كلامَ ذلك الطّالب الشّاتِم سَنَةً؛ مُجازاةً له على ما بَدَرَ منه تجاه الإمام ابن جرير.

وقد تولّى ياقوت الحَمَويّ الكشف عن سبب تصنيف الطّبري لهذا الكتاب، وأبانَ الملابسات الّتي أفضت إلى ميلاد هذا السِّفْر، فقال – رحمه الله -: (وكان سببُ تَصنيف هذا الكتاب أنّ أبا جعفرٍ كانَ قد لزِمَ داودَ بنَ عليّ مدّةً، وكتبَ مِن كتبِه كثيرًا، ووَجدنا في ميراثِه مِن كتبِه ثمانينَ جزءًا بخَطِّه الدَّقيق، وكانَ فيها المسألةُ الّتي جَرَتْ بين داود بن عليّ وبين أبي المجالد الضَّرير المعتزليّ بواسطٍ عند خروجهما إلى الموفّق لمّا وقعَ التّنازُعُ في خلقِ القرآن، وكان داودُ بنُ عليّ قد أخذَ مِن النَّظَرِ ومن الحديث ومِن الاختلاف ومِن السُّنَن حَظًّا ليس بالمُتَّسِع، وكان بَسيطَ اللِّسان حَسَنَ الكلام مُتَمَكِّنًا من نفسِه، وله أصحابٌ فيهم دعابةٌ قد تَمكَّنتْ منهم حتّى صارَتْ لبعضِهم خُلُقًا يَستعملُه في النَّظَرِ لِقَطع مُخالفيه، وكانَ ربّما ناظرَ داودَ بنَ عليّ الأثباتُ في المسألة في الفقه فَيراه مُقَصِّرًا في الحديث فيَنقلُه إليه، أو يُكَلِّمُه في الحديث فيَنقلُه إلى الفقه، أو إلى الجَدَل إذا كان خَصْمُه مُقصِّرًا فيهما، وكان هو مُقصِّرًا في النّحو واللّغة وإن كان عارفًا بقِطعةٍ منه، وكان أبو جعفر مَلِيًّا بما نهضَ فيه من أيِّ علمٍ كان، وكان مُتوقِّفًا عن الأخلاق الّتي لا تَليقُ بأهلِ العلم، ولا يُؤثِرُها إلى أن ماتَ، وكان يحبُّ الجِدَّ في جميع أحوالِه، وجرَتْ مسألةٌ يومًا بين داود بن عليّ وبين أبي جعفر، فوقفَ الكلامُ على داود بن عليّ، فشقَّ ذلك على أصحابِه وكلَّمَ رجلٌ من أصحاب داود بن عليّ أبا جعفرٍ بكلمةٍ مَضَّةٍ [مُوجِعَة]، فقامَ من المجلس وعملَ هذا الكتابَ، [ثمّ بَدا له أن يُخرجَ مِن الكتاب ما لا يَتَناسَبُ، فلم يَزَلْ حتّى] أخرجَ منه شيئًا بعد شيءٍ إلى أن أخرجَ منه قطعةً نحو مِائةِ ورقةٍ، وكان ابتدأ الكلامَ فيه بخُطبة من غير إملاءٍ، وهو من جيّد ما عملَه أبو جعفر، ومِن أحسَنِه كلامًا فيه حملًا على اللَّغَط عليه، ثمّ قطعَ[5] ذلك بعد ما ماتَ داودُ بنُ عليّ [ولم يُمْلِ من الكتاب شيئًا]؛ فلم يحصُلْ في أيدي أصحابه من ذلك إلّا ما كتبَه منه مُقَدّمو أصحابه، ولم يُنقَلْ. فمِمَّن كتبَ هذا الكتابَ منه أبو إسحاق ابن الفضل بن حيّان الحلوانيّ، قال أبو بكر بنُ كامل: وسمعناه منه عنه، وأبو الطَّيِّب الجرجانيّ وأبو عليّ الحسن بن الحسين بن الصّوّاف وأبو الفضل العبّاس بن محمّد بن المحسن وغيرهم. وقال الرّواسي - وكان من مُقَدَّمي أصحاب داود بن عليّ -: إنّ داودَ قطعَ كلامَ ذلك الإنسان الّذي كلّمَ أبا جعفرٍ سَنَةً؛ مُجازاةً له على ما جَرى منه على أبي جعفرٍ.

[وعلى إثر هذا العمل من الطّبريّ]؛ تعرضَ [أبو بكر] محمّد بن داود بن عليّ [ت: 297هـ] للرَّدّ على أبي جعفر فيما رَدَّه على أبيه، فتَعَسّفَ الكلامَ على ثلاثِ مسائل خاصّة، وأخذَ في سَبِّ أبي جعفر، [ورماه بالرّفض والعَظائم؛ كالكفر وارتكاب المنكرات، فتَقَلَّدَ العامّةُ عنه ذلك

وأشاعوه]. وهو كتابُه المنسوبُ إلى الرَّدّ على أبي جعفر ابن جرير[6].

قال أبو الحسن ابن المُغَلِّس[الدّاوودي]، قال لي أبو بكر بن داود بن عليّ [الظّاهريّ]: كان في نفسي ممّا تَكلّمَ به ابنُ جرير على أبي، فدخلتُ يومًا على أبي بكر بن أبي حامد، وعنده أبو جعفر، فقال له أبو بكر [ابن أبي حامد]: هذا أبو بكر محمّد بن داود بن عليّ الأصبهانيّ [وعرَّفَه بي]، فلمّا رآني أبو جعفر وعرفَ مكاني رحَّبَ بي وأخذَ يُثني على أبي ويَمدَحُه [ويَصِفُه] ويَصِفُني بما [أزالَ ما في نفسي و] قَطَعَني عن كَلامه)[7].

فهذا الموقف النَّبيل من أبي جعفر - رحمه الله - أذهبَ غيظَ قلبِ شانِئِه؛ بل وأودعَه محبَّتَه؛ فاستعاضَ بالبُغضِ والكَراهية الإعجابَ، والتَّقديرَ، والوُدَّ.

يتبع/ ...

والحمد لله ربّ العالمين.

من مَظانِّ المبحث:

1- الاستدلال في التفسير (ص45/ 19).

2- الإمام الطّبريّ للزّحيليّ (ص192).

3- إمام المفسّرين والمحدِّثين والمؤرّخين للشِّبْل (ص22، 82).

4- الإمام محمّد بن جرير الطّبريّ شيخ المفسّرين[8] (ص19).

5- دراسات وبحوث: محنة الإمام الطّبريّ مع الحنابلة[9].

6- سير أعلام النّبلاء (13/ 109 – 110 رقم 56 محمّد بن داود).

7- الطّبريّ للحُوفيّ (ص59).

8- المؤرّخون العرب والفتنة الكبرى/ الجزء الثاني[10].

9- الوافي بالوفيات (2/ 213).

---

[1] كنى الإمامُ الطّبريُّ الإمامَ دوادَ بنَ عليٍ في رَدّه عليه بـ(ذي الأسْفار)، وهو يريدُ به أنّه لا يعرفُ إلّا ما في الكتب والأسْفار، فهو يعتمدُ عليها، ولا يستطيعُ الاعتمادَ على النَّظَر والتَّفكير.

[2] للإمام الطّبريّ ثلاثةُ كتبٍ في هذا موضوع (علم الخِلاف)؛ هي:

أ- اختلاف الفقهاء.

ب- الرّدُّ على ابن عبد الحَكَم المالكي.

ج- الرّدُّ على ذي الأسْفار.

[3] قيل: انتقدَ فيه الطّبريُّ اجتهادَ أستاذِه وتَفسيراتِه للعقائد الإسلاميّة.

[4] هو أَبُو سُلَيْمَانَ دَاوُدُ بنُ عَلِيِّ بنِ خَلَفٍ البَغْدَادِيُّ الأَصْبَهَانِيّ الفقيه إمام أهل الظّاهر (200 - 270هـ). كان شافعيًّا ثمّ استقَلَّ عنه. لَقِيَه الطّبريُّ، وأخذَ عنه مباشرةً الفقهَ على مذهبِه الظّاهريّ، وكتبَ عنه من كتبه كثيرًا. ثمّ ردَّ عليه. وما النّاس إلّا رادٌّ ومردودٌ عليه، وهذا شأنُ العلم، فليَفطِنِ لهذا طُلّابُه. قال الذّهبيُّ (13/ 100): وقد كان محمّد بن جرير الطّبريّ يختلفُ إلى داود بن عليّ مُدّةً، ثمّ تخلَّفَ عنه، وعقَدَ لنفسِه مجلسًا، فأنشأ داودُ يَتمثَّلُ:

فلو أنّي بُليتُ بهاشميٍّ خُؤولتُه بَنوةُ عبدِ المَدانِ

صَبرتُ على أذاهُ لي ولَكِنْ تَعالَيْ فانظري بمَن ابتَلاني

[5] ومن غريب ما أفادَه د. عليّ الشِّبْل في إمام المفسّرين والمحدّثين والمؤرّخين (ص107)، ومقدّمة التّبْصير في مَعالِم الدّين (ص62) أنّ أبا جعفر الطّبريّ إنّما قَطَع كتابَه بعدما كُفَّ بَصَرُه، فوقَفَ عن إملائِه، وتَركَه! قلت: فليُحَرَّرْ.

[6] وَسَمَه بـ(كتاب الانتصار من محمّد بن جرير الطّبريّ).

[7] معجم الأدباء (6/ 2460 - 2461) بتصرُّف.

[8] للحسين عبدالغني أبي الحسن.

[9] د. منى زيتون. نشر/01 آب = أغسطس 2019م - عن موقع "صحيفة المثقّف" على الشّبكة -.

[10] لعدنان محمّد مِلحِم (على الشّبكة) المصدر: مجلّة التّاريخ الإسلاميّ 1379هـ. العدد 2.
